من الوطنية إلى الفدائية

من أنت يا مصر؟:

أين الشاعر المصور؟ أين القصاص المحلل؟ أين المؤرخ المسجل؟ أين هؤلاء جميعًا ليصوروا ويحرروا ويحللوا ويسجلوا أحداث الأيام العشرة التي مرت بمصر فكشفت عن جوهرها الخالص وعنصرها الحر، وأثبتت للناس من طريق الحس والواقع أنها بفضل ما وهبها الله من نقاء الفطرة ووثاقة البنية وقوة الروح وصدق الإيمان أمنع من أن يمسها سوء من هجوم ثلاثة أوبئة عليها في حشد واحد ووقت واحد: طاعون انجلترا وكوليرا فرنسا وحمى إسرائيل. ووباء فرد من هذه الأوبئة أصاب جيش تشرشل وهو في عنفوان قوته، ومس شعب (دلاديه) وهو في أوج سلطانه، فخرًا صريعين لليدين وللفم أمام هتلر! وأخذ لسان القدر يعد على رأسي الصريعين أعداده العشرة التقليدية الرياضية، فنهض تشرشل مترنحًا عند العدد التاسع ليقاوم الموت مع الزمن والظروف والحظ، وظل دلاديه بعد العدد العاشر مجندلاً على الأرض ليضمد جروحه مع العار والمهانة والذل!.

أمر عجيب! مائة وستون ألف جندي كما أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية، وأسطول من الطائرات والمدرعات والمدمرات والحاملات والناقلات والكاسحات كما روى مستر هانسون بلدوين المراسل الحربي لصحيفة نيويورك تايمز، سيرتها انجلترا وفرنسا إلى غزو مصر، ثم لا يستطيع هذا الجيش الكثيف وهذا الأسطول المخيف أن يحتلا بعد اللتيا والتي إلا جزءًا ساحليًا صغيرًا من بورسعيد !؟.

ذلك شيء كنا نقرأ مثله في كتب الأساطير وقصص الخوارق، وكنا نرى تمثيله على المسرح والشاشة، فنهتز له ونعجب به ونطمح إليه على اعتباره مثلا يضربه الخيال الخصب لما يجب أن تكون عليه البطولة، ولكننا نراه اليوم رأي العين ونسمعه سمع الأذن في بورسعيد، فما الذي كسر هذا العدوان وفل هذه القوة؟.

عناصر النصر الأربعة:

لا مراء في أن مصر تملك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو، ولكنها تملك أيضًا عنصرًا رابعًا لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية في نفوس أفراده إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحد وجود الفرد بوجود الشعب، ووجود الشعب بوجود الوطن. وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التي تنتظم الفرد والأسرة والأمة والحكومة والدولة فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضروريًا للآخر. والفدائية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض، ويضحي ولا يفكر في الثواب. كل سعادته أن يشعر وهو يسبل عينيه على آخر شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه مطمئنة إلى لقاء ربه. أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشتري من الله الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: 111]. فالتضحية في ذهنه بيع وشراء وعمل وأجر. على أن الفدائي الذي يُقتل في سبيل شعبه، تُكتب له شهادة المجاهد في سبيل ربه.

بلغت مصر إذن درجة الفدائية العاملة وهي درجة ليس بعدها إلا النصر المؤزر والسلطان الدائم. هذا هو الشعب على اختلاف طبقاته وحالاته قد أخلى باله من كل هم إلا هم العدو، فهو يسارع إلى معسكرات التدريب ليستعد، ويبادر إلى ساحات القتال ليجاهد. فإذا غصت المعسكرات واقتضت الحال أن تقدم القيادة بعضًا وتؤخر بعضًا ثار المؤخرون ورابطوا حول الساحات قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم يلحون أن يسيروا إلى ملاقاة العدو !.

لقد رأينا طلاب الجامعات والمدارس يشترون لباس الميدان بأموالهم ويتركون بيوتهم المترفة ليبيتوا في العراء على جوانب الطرق وانتظارًا للساعة الرهيبة الحبيبة التي يقدمون فيها دماءهم قربانًا للوطن المقدس.

وهذا هو الجيش على اختلاف أسلحته وفرقه ينقلب جيشًا من الفدائيين فيقاتل جيوش ثلاث دول ولا يبالي، ويستقبل طوائر ثلاث دول ولا يفزع، ويصادم أساطيل

ثلاث دول ولا ينكل! وكيف يبالي أو يفزع أو ينكل وهو يطلب النصر أو الموت؟ لقد أصاب العدو في البر والبحر والجو إصابات قاتلة أوهنت قوته وأحبطت خطته وأذلت كبرياءه.

بورسعيد:

وفي بورسعيد تجلت فدائية الجيش والشعب في أروع صورة من البطولة لم يقع في سماع التاريخ مثلها إلا في ستالينجراد وسيباستبول.

كان من الجائز أن يلوذ البورسعيديون بالداخل ليأمنوا هجوم الكومندوس وجنود المظلات وقذائف الأسطول، ولكنهم استحبوا الموت على الحياة والمجد على النجاة فثبتوا في مساكنهم وأماكنهم ثبات الأسود الذائدة عن عرائنها، ووقفوا سدًا من البسالة والصبر والصدق والإيمان والتضحية بين الغزاة ومصر، يردونهم بالنار، ويدفعونهم بالحقد، ولا يبالون بأربعمائة واثنتين وسبعين غارة جوية في يوم واحد، تتخللها موجات المظلات من قبرص، وهجمات المدافع من السفن، حتى هلك أكثر من نزل، وانحصر طوال الأعمار منهم في رقعة من ساحل المدينة الباسلة لا يملكون أن يتقدموا منهما، ولا يستطيعون أن يثبتوا فيها.

إن التضحية التي بذلتها بورسعيد نساء ورجالاً وشيوخًا وأطفالاً قد أنقذت مصر كما قال عبد الناصر، وخدمت السلام كما قال نهرو، وأفسدت الغزو كما قال كتلى. أما الدماء الغالية التي أُريقت، والديار العزيزة التي أُصيبت، فإنها ضريبة المجد ووثيقة النصر وفدية الحرية. وما ضاعت خسارة حررت وطنًا، ولا أهدر دم أحيا أمة.

مصر والعالم:

إن خمسا وتسعين في المائة من اسم العالم تظاهر مصر وتعطف عليها بالقلب الخالص، وتتحدث عنها باللسان الصادق، وتجادل عن حقها بالمنطق الدامغ، ولا تكاد إذاعتها ولا صحافتها تفتر ساعة عن الإنكار والاحتجاج على الدولتين اللتين أخزتا جنس الإنسان بعدوان لا سبب له من القانون ولا موجب له من الواقع. ثم تؤيدها بما يشبه الإجماع في الأمم المتحدة وتعلن استعدادها لدفع الشر عنها بالسلاح والرجال إذا لجَّ المعتدي في عدوانه وأصر على غيه.

فبماذا بلغت مصر هذه المنزلة في نفوس الأمم جمعاء؟ أبالاعتداء الباطل على وطنها المستقل الحر، أم بالعدوان الضخم على شعبها المسالم الآمن، أم باستماتتها، وبسالتها وتضحيتها في قتال دولتين خاضتا حربين عالميتين فاستفادتا من هزائمهما المنكرة خبرة ودربة، أم بالتزامها في نضالها جوانب الحق والصدق والقانون والشرف أمام دول ثلاث تجردت من كل خلق كريم وتبرأت من كل عمل صالح؟ بكل أولئك أصبحت مصر قبلة الأنظار ومثار الإعجاب ومهوى الأفئدة. بكل أولئك ظفرت مصر بثقة الدول وتأييد الأمم وعطف العالم. والحق الذي يؤيده الواقع أن مصر ترتفع كل يوم في درجات العزة بسياستها الحكيمة وقيادتها الحازمة وكفايتها العظيمة، فبلاغاتها وثائق، وإذاعتها صدق، وصحافتها تاريخ، ووعودها شرف، وأن انجلترا – ودعنا من فرنسا وإسرائيل – تنخفض كل يوم إلى دركات الخسة بسياستها الخرقاء وقيادتها العاجزة ووغادتها الأصيلة، فبلاغاتها كذب وتضليل، وإذاعتها تلفيق وتهويل، ووعودها مزاعم وأباطيل، وببعض هذه الرذائل تسقط عروش وتدول دول وتنقرض شعوب !.

زادها الله مما هي فيه، وألح عليها إيدن بالفتن والحروب، ليسلم العالم كله من أربعين مليون مكروب !.